مرآة الطريق وتاريخ الغصون

لا خليج المرايا ولا وردة الرياح :
كل شيء جناح
طالع في دمي ، في الحقول
سابح في مدار الفصول

حيث آخيت وجهي مع العشب
واستسلمت خطايا
لحنين المرايا
ورأيت العناصر تبكي وتفتح
جرح الاخوّه .
بيننا ، وعرفت الاشاره
انني اول البشاره
انني نبتة من الشرق في روضة
النبوّه .

لا خليج المرايا ولا وردة الرياح :
كل شيء طريق
الحدود ورياتها والحريق
والسدود
اللقاء ومعراجه
الصوت (صوتي في راحتي)
العصافير تنأى ، وتترك أسماءها
في الغصون
الغصون وتاريخها ـ (فتحنا
وطنا اخرا وسرنا
في وداع العصافير ، كنا
لتباريحها فضاء ،
رحلنا مثلها ...)

والحريق
كل شيء طريق .

كل شيء طريق ـ (حضنّا مراراتنا
صعدنا
في بكوريّة الاعالي
لابسين الرموز ، اصطبغنا ،
صبغنا غلالاتها بالاعالي ...)

والحمام الذي يتناسل في وجهنا
طريق
والسراب ومزماره طريق

كل شيء طريق
والوجوه التي تتناسخ في غبرة
الطريق
والوداع المرابط في وحشة الطريق ـ
(يا زمان المطر
أعطنا ، وابتكر للشجر
غيمةً ـ حلة من هوانا

واسق من حن من سقانا
يا زمان المطر ...)

بغتة ، صار بيني وبين الطبيعه
لغة ورسائل ، صار الهواء
درجا ، صرت امشي
بين عينيَّ والفضاء
سائحا في ثياب الطبيعه ، ـ

(ان تكن يا بريد المسافه
فارسا ، فحنيني
فرس ، ان تكن صحارى
فيداي القوافل ، ان كنت نارا
فانا عاشق غريب تيممتها ،
والعرافه
كوكبي ، يا بريد المسافه ...)

ـ ٢ ـ

رافقتني الرياح واحجارها النبويه :
حجر سيد المدينه
حجر خادم المدينه
حجر واسع يتدحرج في خاتم
الخليفه
حجر نجمة خفيفه
علقته الصبايا
بين احلامهن الاليفه
وعيون المرايا .

أستودع الحجر
ما يترك النهار من حطامه
في سفري ، ما يترك السفر

فللحجر
خيط من الراحة ، في نسيجه
عيناي والغابات والمطر

وللحجر
مدينة تولد كل ليلة
ابحث في شقوقها
اركض ـ كل ساحر
يضيع في مدينة الحجر

لكنني استودع الحجر
ما يترك النهار من حطامه
في سفري ، ما يترك السفر ...)

رافقتني الرياح واحجارها النبويه
والذين يسيرون في النار ،
يستنبتون
شجر الحلم ، يفتحون
في رماد العصافير بوابة ...
(... وسرنا
خطوات من القمح ، سرنا ...)
يرون الطريق اغاني لغة للاغاني
وخطاهم ينابيعها ...
(التقينا
بين عنق الطريق وارداقها ...)
الطالعون
من قلاع الهجوم
يمدّون سلطانهم في تخوم الغرابة
في اول النبات ...
(... انحنينا
للطريق واعشاشها
رأينا
سحر ابعادها
سمعنا
صوتها ...)
العاصفون
الذين يجيئون كالوقت ...
(عين الغرابه
مطر او سحابه
تحت اهدابنا
عجبنا
كيف لم يفتح الجنون
لخطانا شبابيكه ، عجبنا ...
والذين يرجون ماء العصور ...
(انتشلنا
وطنا عائما ...)
يسمون ما لا يسمى
يكسرون الحدود واقفالها ، ينشئون
طرقا في الطريق ، يسيرون
قدامها ...
(... استمعنا
لصدانا يسافر في العشب ،
يقبل من آخر البحر ...)
يهوون في لجة الحلم ...
(... كنا
ذهب الليل والصحارى
فوق غرناطة في بخارى ...)
والذين يسيرون بين التحول
والنار ...
(... سرنا
كلهم رافقوني ...)

... حيث تقص الشمس ، بعد
النوم
عليَّ ، كل يوم :

« ... ونادر الاسود
يقرأ باسم الله والشقاء
أسطورة الخبز وشعر الماء
... ونادر الاسود
تحمله الاشجار
وكلّ غصن قبضة وسيف
ينضج قبل الصيف
ينضج بعد الصيف
ونادر الاسود
هاجر كي يرجع في تشرين
في اول الامطار ... »

... حيث رأى مهيار
كيف تجيء الشمس كل يوم
الَيّ ، بعد النوم
حيث يصير الماء
من لهفة ، نافورة الحريق
حيث يكون الحجر الضائع في
الطريق
أجراً من مدينه .

ـ ٣ ـ

... لست هذا الحصى ولا القبّس
كان الرمح في جبهتي ، وصيرت
احزاني بلادا ، شمسا تجيء
لبست الغيم خفيّاً ،
فيأت قافلة للنحل ، غصنا
فيأت قبرا ـ
هنا التاريخ جبس ، هنا الملوك
تجاعيد وجبس
وحينما همد التاريخ ايقظته ،
استيقظ التاريخ ،
غنيت ، والملوك تجاعيد وجبس ،
غنيت ...)

غنيت في القصر
وسيرت كوكبي في الرواق
بعد او قبل ، ساعة الاشراق
حين تستوحش المرايا ويستنبت
جذر الحنين والترياق
حين تجيء الشمس ، بعد النوم
الي ، كل يوم ...

... تفتح الارض بيتها
تبدأ الارض خطاها معي ،

(معي غضب الارض ، هواها ،
سطوحها الوحشيه
والدم السيد ، الدم الآمر ، الطالع
من حفرة الزمان القصيه)
... تفتح الارض بيتها ،
(سره الارض سرير
كل التواريخ عقد يتدلى حولي ...
وتاريخنا ينضح :
« ... فينا الجمر ، الضحايا
وفينا
شهوة الملح ، شهوة العنب الاحمر
فينا ،
وصحوة الجنس في الليل ،
وقربانه
وتسبيحة المرأة انهارت على
صدر فاتح يغلق التاريخ
فينا الدم الغيور الغرابي الغريب
المقدس المسفوك
والرقيق : المليك والمملوك . »

(... كل شيء كما كان والثائرون
اصدقاء الرياح
يجرحون النهار يسيرون بين
الجراح ...)

غير اني اسير ، اسمّي ، ارد الى
كلماتي
سحر تكوينها ، اسمي
بالجذور وايقاعها ، اسمي
شجر الخاجة النبية في اول الفصول
حيث لا يعرف الدخان
ان بين الحقول
وينابيعي الخفيه
سقطت جثة المكان
في دهاليزها الابديه .

... واسمي ، وطفّحت انهاري
البشريه
غضبا ينسج الخيوط
بين صوتي ومواجه ، والشطوط
قوس نار ــ حضنت الحريق
وقشرت المكان ، جعلت المكان
زهَرا يقرأ الطريق
والخطى ترجمان .

ورأيت اغانيّ تمشي وتنسج
اقدامها الشباك
لطيور الكآبه
ورأيت اغاني تلهو ، تعد التراب
حبة حبة ، والعذاب
نائم في السواد على ضفة الغرابه .

كانت الريح عينين مسنونتين
تخرقان الظلام وعاداته ، تجرحان
جسد الليل ، تشربان
دمه الاسود المصفى
حينما تصعد المقابر او يسقط الملاك
كانت الريح جنية والاغاني
وجهها واليدين ...

... « ونادر الاسود
كان الصدى ، وكان
يجلس بين القمر الجائع
والبستان
يكتشف الظل ، يغطي جوعه وكان
كالدهر ،
فلاحا من الفرات
يخيط جرح الماء
يمشي وتمشي خلفه السماء . »

حيث تجيء الشمس بعد النوم
الي ، كل يوم
حيث يصير الماء
من لهفة نافورة الحريق
حيث يكون الحجر الضائع في
الطريق
أجرأ من مدينه .
ــ ٤ ــ
ــ « من اين اتيت ؟ »
ــ « من ارض الموتى ، من اجران
الدمع اتيت
لم اسكن بيت ...

وحينما نزلت في مقبره
والشمس تلتف على كاحلي
كالعشبة المسكره
حملت للجوع قرابينه
(كان دمي اضحية هاجرت
الى غد اخر
كانت يدي مجمره ...)

ولم اجد في اول المقبره
ولم اجد في اخر المقبره

غير الاطفال
كانوا وعد الارض الحبلى
كانوا المد العالي والامواج الحبلى
والشلال ... »
ــ « من اين اتيت ؟ »
ــ « كنت اغامر في الغابات
اركض خلف الجنيات
احلم ان الجنيات
خبز ...

... ومر عصفور بلا هويه
من فلوات الطير
والتمت الارض كمزهريه
لليل ، للبقيه
من زهر الصبير . »

ــ « من اين اتيت ؟ »

ــ « كنت حطابا عبدت الشجرة
وغرزت الفأس في اهدابها ...

ــ « كيف اتيت ؟ »

ــ « جئت في قافلة الرعب ورايات
الجنون
في بقايا فأسي المنكسره
مرهقا يحمل تاريخ الغصون ... »

ــ ٥ ــ

مهيار
يهبط في محيط قاسيون
في بردى ، في فجوة السقيفه
في الغوطة المفكوكة الازرار
في الليل ــ محمولا على قطيفه :

(شقائق النعمان
والحجر الماسي والقنب والرمان
حشد من الفرسان في ايوان
قاسيون)

حيث تصير النار
بحيرة ، ويولد العصفور
في ورق اللوتس ، حيث الماء
سفينة تقل للابناء من مقابر الاباء
مجامر البخور ــ
(تحت وجه الفسيفساء
تربعنا ...

وغلغلت في ضباب الاريكه
في دوار ، في حضن غيبوبة
خضراء
في طعم جنة
وسمعت البحر يبكي امواجه
المنهوكه ...) :
ساطع

لهبي التحول هذا الزقاق ـ الحجار
مرايا :
حجر سيد المدينه
حجر فارس المدينه
قاطع يتقدم يجتاح يدخل في
مقتل المدينه ...
عجلات النهار ارتخت ، والمدينه
اسلمت وجهها المدينه .

حيث تقص الشمس بعد النوم
علي كل يوم :
« ... ونادر الاسود
كالدهر ، فلاح من الفرات
يخيط جرح الماء
يمشي وتمشي خلفه السماء...»

مهيار
جسر الى الهبوط حتى السحر
والشقاء
في الجسد الارضي او في جسد
السماء ـ

(جسدي هنا ، جسدي هنالك
ساحر
صوت يئن بلا صدى
يرتاد يفتتح المدى
هو والمدى ...
فصلته جارحة البروق عن
الدم اللزج الهزيل
جسدي قباب الارز ، والنهر
المسافر ، والنخيل ...)

كل شيء كما كان ، والثائرون
اصدقاء الرياح
فقراء الزوايا واطفالها والنساء البقايا
يجرحون النهار يسيرون بين
الجراح
كل شيء كما كان : كفاي مثقوبتان
والصدى يشرب النزيف
كل شيء كما كان : عيناي معصوبتان
والطريق الرغيف ، ـ

(سقطت حربة ، فلملمت ايامي
واسلمتها الى كلماتي
في قصور التفتحات
ودفء الموت في موتي الصديق
المؤاتي
في الغد النافر المهاجر ،
في البرق الصديق ، البرق
البعيد الآتي

لست الا ايقاعها : لست الا
نسما طائفا
يفتت روح الماء بين الانقاض
والاشتات ...)

مهيار
وجهك برج الليل في سفينة
البخور
والحلم في اجنحة اليمام واليمام
في التنور
والكناري الذي غنى وغنى :
« لم يعد حولي مكان غير ظلي
لم تعد حولي طريق غير
ظلي ... »
والذي غنى وغنى :
« كان لي ارض منحت الارض .
كان
شجر مات ... »
الكناري الذي غنى وغنى :
« انت يا وجه المكان
نصفك الاول مات
نصفك الاخر لم يولد ... »
وغنى :
« كان لي ظل منحت الظل . كان
شجر مات ... » ـ
الكناري الذي غنى وصلى للحياة
طار من شوق الى الموت ومات ...

مهيار
وجهك برج الضوء في سفينة
الظلام
والحلم في اجنحة اليمام واليمام

جسد هنا جسد هنالك ساحر
يرتاد يفتتح المدى
هو والمدى ...
حيث تقص الشمس ، بعد النوم
علي ، كل يوم :

« ... وسمعت اساطيرهم ،
وخبزنا ، اكلنا
وقفنا امام المرايا
ورايت الوجوه الطريده
وتجاعيدها ، ورايت الجنون
وهو يستنفر العصور يسوق
العصور
نحونا . ورايت الرماح
تنحني فوقنا كالغصون ، رايت
الغصون
في تقاطيعنا ...

... رايت المراكب في فجوة
الخليج
تحمل النار والرياح
وغسلت المرايا وحررت اعصارها،
مزجت المرايا
والطريق وتاريخها ، وجعلت
المزيج
كيمياء العصور الجديده ...

ويجيء الصباح
من تخوم خفيه
لابسا حمرة القطيفه
لهبيا وديعا يطهر ، يزرع جذر
الرياح
في بلاد الخليفه
واقاليمها الورقيه ... »

حيث رأى مهيار
ونادر الاسود
كيف تجيء الشمس بعد النوم
الي ، كل يوم
حيث يصير الماء
من لهفة نافورة الحريق
حيث يكون الحجر الضائع في
الطريق
اجرا من مدينه .
ـ ٦ ـ
سقطت مناديل الفضاء بشارة تلد
البشاره
لم يبق الا عابر
شربت ملامحه الجسور
هو ، مرة ، نجم يشف ، ومرة ، نجم
يغور ـ
لم يبق من تيه الطريق سوى الطريق
سوى الشراره
والماء نجار يدور
يعطي ، يشير ، يمد راحته ، ويؤذن
بالعبور .

ادونيس

اشارات :

*** « مرآة الطريق وتاريخ الغصون » المقطع الاول من قصيدة طويلة .**

*** في القصيدة عدة اوزان متداخلة ،متآلفة، وهي للقراءة دون وقف ، الا عند قرار الايقاع الذي يعوض عن القافية .**

*** نادر الاسود ، احد قادة الثورة الاشتراكية العربية الاولى التي تسمى «ثورة الزنج».**

*** مما يحكى عن زهر اللوتس ان فيه ما ينسي الغريب وطنه .**